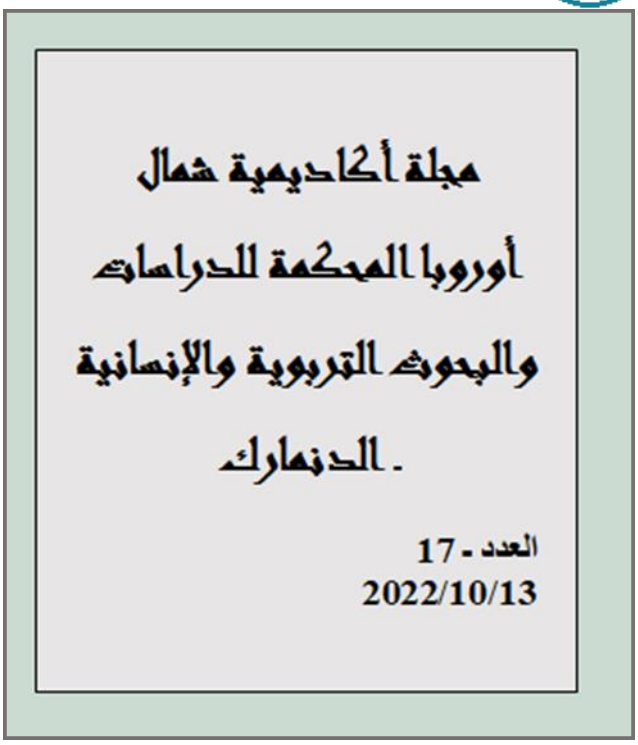

منهج دراسة وتعليم الصوت القرآني عند مكي بن أبي طالب القيسي (437هـ) من خلال كتابه "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة"

Method of studying and teaching the Koranic sound according to Makki Bin Abi Talib Al-Qaisi (437 AH) through his book “The Care (Ar-Ri’ayah) to Improve Reading and Realize Recitation

إعداد

أ.د. مبارك بلالي

جامعة أحمد دراية، أدرار – الجزائر

mebarekblali@yahoo.com

ملخص.

يتعرض هذا البحث إلى كشف ودراسة المعالم الكبرى للمنهج العلمي الذي اتبعه واحد من أهم أئمة القراءة والتجويد، في دراسة وتعليم الصوت القرآني وظواهره، وهو الإمام مكي بن أبي طالب القيسي (437هـ) من خلال كتابه "الرعاية"؛ فقد تعرض البحث إلى بيان منهج الإمام مكي في عرض المعلومات الصوتية في علم التجويد القرآني، وكذا بيان منهجه في تعليم أصوات القرآن وتقريبها.

وخلص البحث إلى أن ذلك المنهج كان متفردا ومبتكرا، وازن فيه مكي بين أغراض التأليف العلمي وبين متطلبات التعليم والتلقين. ومن معالم ذلك المنهج أيضا أن مكيا ابتعد– ما أمكنه ذلك – عن الاختلافات بين العلماء في عديد القضايا الصوتية وركز على: " حقائق الكلام وإعطاء اللفظ حقه ومعرفة أحكام الحروف التي ينشأ الكلام منها مما لا اختلاف في أكثره " على حد قول مكي.

الكلمات المفتاحية: الصوت اللغوي؛ المنهج؛ دراسة؛ تعليم؛ التجويد القرآني؛ مكي بن أبي طالب

Abstract

This research attempts to reveal and study the major features of the scientific approach taken by one of the greatest imams of reading and recitation in studying and teaching the Koranic sound and its phenomena, namely the imam Makki Bin Abi Talib Al-Qaisi through his book “Ar-Ri’ayah”. The research described Imam Makki’s approach to the presentation of sound information in Koranic recitation, as well as his approach to teaching the sounds of the Koran. The research concluded that the approach was unique and innovative, in which Imam Makki balanced the purposes of scientific authorship and the requirements of education and indoctrination. Among the features of that approach is that Makki has moved away, as far as possible, from the differences between scholars on many phonological issues and has focused on: “The facts of speech, giving the word its right and knowing the provisions of the letters from which words arise, which is no different in most of it”, according to Makki.

Keywords: linguistic sound, approach, studying, teaching, Koranic recitation, Makki Bin Abi Talib.

أولاً: مقدمة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فقد خلّف لنا علماء التجويد جهوداً مشكورة ودراسات متميزة في موضوع الأصوات العربية بعامة، والصوت القرآني منها على وجه الخصوص؛ فقد قاموا باستخلاص مادتهم الصوتية من تآليف اللغويين والنحويين وعلماء القراءة ثم أضافوا إليها ملحوظاتهم وآراءهم مستندين في ذلك إلى خصائص الأداء القرآني وأحكام تحقيق حروفه.

ويعدّ كتاب "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة " لمكي بن أبي طالب القيسي (437هـ) واحداً من تلك التآليف في علم التجويد القرآني، التي حوت مادة علمية صوتية متكاملة استند فيها مكي على جهود سابقيه من علماء العربية وعلماء القراءة، وصاغ منها عملاً شاملاً في دراسة وتعليم الصوت القرآني بخاصة، وتعليم أصوات العربية على وجه العموم.

يحاول هذا الموضوع تتبع ودراسة الأصوات القرآنية في كتاب "الرعاية" والكشف عن معالم المنهج الذي سلكه في بحث أصوات القرآن واللغة من حيث كيفية نطقها وتحقيقها، ومن جانب معرفة أحوالها سواء في حال الإفراد أو في حال التركيب، وما هي تلك الملحوظات والتوجيهات التعليمية التي قدمها مكي بين يدي تعليم أحكام التجويد القرآني.

ثانياً: مشكلة الدراسة.

1- ما معالم المنهج العلمي في دراسة أصوات القرآن وعرضها تعليمياً لدى مكي بن أبي طالب.

2- كيف وُفّق مكي بن أبي طالب إلى الموازنة بين متطلبات التأليف في علم التجويد، ومقتضيات تعليم وعرض المعلومات الصوتية.

ثالثاً: حدود الدراسة.

يتناول هذا البحث منهج الإمام مكي في عمليتي التأليف والتعليم من خلال كتاب "الرعاية" في الفترة الزمنية بين (355هـ و437هـ)، وهي الفترة التي ظهرت فيها معالم علم التجويد، بوصفه علماً مكتملاً من حيث مفاهيمه ومصطلحاته.

رابعاً: أهداف الدراسة ومنهجها.

1- الكشف عن معالم المنهج العلمي في التأليف والتعليم عند مكي.

2- بيان الإضافات الفريدة لمكي في منهجية تقريب علم التجويد تأليفاً وتعليماً، ومقارنتها بالمعارف الصوتية الحديثة.

وأما منهج البحث فقد اتبع البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، بحيث تتبع المعلومات الصوتية في كتاب "الرعاية"، وتناولها بالعرض والتحليل.

خامساً: الدراسات السابقة.

هناك بعض الدراسات السابقة تناولت الجهود الصوتية عند مكي بن أبي طالب القيسي نذكر منها:

1- رسالة دكتوراه بعنوان: "الجهود الصوتية للإمام مكي بن أبي طالب القيسي"، من إعداد الباحث عباس السر محمد علي، نوقشت بكلية اللغة العربية بجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان سنة 2005م.

2- رسالة ماجستير بعنوان: "الدرس الصوتي عند مكي بن أبي طالب القيسي"، من إعداد الباحث بكر محمد أبو معيلي، نوقشت بقسم اللغة العربية بجامعة مؤتة سنة 2003م.

3- بحث بعنوان: "الدرس الصوتي العربي وأثره في الجهاز الاصطلاحي لعلم التجويد "الرعاية" لمكي بن أبي طالب نموذجاً" للباحث عصام فاروق، وهو بحث ضمن بحوث المؤتمر الدولي الثالث في علم الأصوات وتكامل المعارف "التكامل المعرفي بين علم الأصوات وعلم التجويد"، انعقد بكلية الأدب جامعة القاضي عياض بالمغرب، ومنشور في العدد العاشر من سلسلة الترجمة والمعرفة (عالم الكتب الحديث، الأردن 2019م).

وقد تعرضت هذه الدراسات للجهود الصوتية في مجال المنهج التعليمي وكذا الجانب الاصطلاحي، وركزت دراستنا هذه على استجلاء جوانب المنهج العلمي عند مكي في مجالي التأليف والتعليم وابتكاراته العلمية المنهجية في الموازنة بين المجالين المذكورين.

سادساً: معرفة الحروف والحركات، ومعرفة ما زاد عن التسعة والعشرين حرفاً.

استهل الإمام مكي بي أبي طالب القيسي كلامه حول الحروف وصفاتها وألقابها ومخارجها وعللها وما بتعلق بذلك.. استهله بمدخل حول معرفة الحروف التي يأتلف منها الكلام العربي، وما يتضمنه تأليف الكلام من حروف متحركة وحروف ساكنة. كما عيّن مكي بي أبي طالب السابق من القسمين عن الآخر: الحروف أم الحركات، وأيهما مأخوذ من الآخر: حروف اللين (أو المدّ) أم الحركات. كما تناول ما زادت العرب في كلامهما عن الحروف التسعة والعشرين، وغير ذلك مما له علاقة بالحروف:

وفيما يلي نعرض لتفصيل ذلك.

1- معرفة الحروف التي يُؤلف منها الكلام.

عدّ مكي بن أبي طالب الحروف التي يؤلف منها الكلام في العربية تسعة وعشرين حرفاً على ترتيب (أ ب ت ث...)، قال: «الحروف التي يؤلف منها الكلام تسعة وعشرون حرفاً، وهي حروف أ ب ت ث وشهرتها تغني عن ذكرها» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 93)

ثم ذكر مكي بعد ذلك سبب تسمية كل حرف من هذه الحروف التسعة والعشرين على اختلاف ألفاظها حرفاً لأنه « طرف للكلمة كلها؛ طرف في أولها وطرف في آخرها، وطرف كل شيء حرفه من أوله ومن آخره» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 93).

يقول ابنجني في هذا الموضوع: « فأما الحرف فالقول فيه وفيما كان من لفظه: أن (ح ر ف) أينما وقعت في الكلام يراد بها حدّ الشيء وحدّته، من ذلك حرف الشيء إنما هو حدّه وناحيته (...) ومن هنا سميت حروف المعجم حروفاً، وذلك أن الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته وطرفه كحرف الجبل ونحوه،

ويجوز أن تكون سميت حروفاً لأنها جهات للكلم ونواح، كحروف الشيء وجهاته المحدقة به» (ابن جني، 2000م: 28-29).

ثم ينتقل مكي بن أبي طالب بعد هذا إلى الحديث عن الحروف المضافة إلى الحروف التسعة والعشرين الأصلية ويطلق عليها مصطلحي: "الأحرف المستعملة" و" الأحرف قليلة الاستعمال"، (مكي بن أبي طالب القيسي2008م:93) مخالفاً بذلك ما شاع من تسميتها عند سيبويه (سيبويه ، د.ت: 432/4) وغيره من العلماء بـ " الحروف المستحسنة" و" الحروف غير المستحسنة" أو "الحروف المستقبحة "، ولا تخلُ هذه المخالفة في الاصطلاح – في نظري – من معنى ومفهوم خاص؛ ذلك أن مفهومي الاستحسان والاستقباح يشيران إلى موقف وحكم الشخص على هذا النطق أو ذاك، بصرف النظر عما إذا كان هذا الحكم من عالم دارس أو باعتبار ما كانت تراه العرب وما كانت تصدره من أحكام حول نطق بعض الحروف. وأما مفهوم "الاستعمال" و "عدم الاستعمال" فهو مصطلح يشير إلى الواقع اللغوي البحت دون الحكم على هذا الواقع، وهذه هي مهمة الباحث اللغوي بالأصل؛ فهو يصف الواقع اللغوي لهذا النطق أو ذاك دون تدخل في الحكم عليه بالاستحسان أو الاستقباح.

وثمة ملحوظتان يمكن تسجيلهما في هذا الموضع حول تصنيف مكي بن أبي طالب للحروف التي يتألف منها الكلام (الأصلية)، والحروف المضافة (الفرعية) وهما:

الملحوظة الأولى:

إن إشارة مكي بن أبي طالب إلى أن هنالك حروفاً أصلية (يتألف منها الكلام) وحروفاً فرعية (مضافة إلى التسعة والعشرين) يدل بوضوح على أن مكياً يريد بمصطلح الحرف معنى: الصوت الكلامي (محمد السعران ، د.ت) (speech–sound)، وهو أحد المعاني المتعددة لكلمة الحرف، لأن مفهوم " الصوت الكلامي" أو "الأصوات الكلامية" لا يشير فقط إلى الحرف الأصلي أو الحروف الأصلية، وإنما يشير إلى القسمين أو النوعين معاً من الحروف؛ الأصلية والفرعية، وعلى ذلك يمكن أن يكون مصطلح الحرف – عند مكي – مقابلاً لمفهوم أو معنى: الصوت الكلامي (speech – sound)، كما يمكن أن يكون مصطلح الحروف الأصلية مقابلاً لمصطلح الفونيمات (phonems) ويكون مصطلح الحروف الفرعية (أو المضافة بتعبير مكي) مقابلاً لمصطلح ألوفونات (Allophones).

الملحوظة الثانية:

إن وصف مكي بن أبي طالب القيسي للحروف الأصلية بأنها حروف "يؤلف منها الكلام "ووصفه أيضاً للحروف الفرعية بأن" منها أحرف مستعملة وأخرى قليلة الاستعمال"، يدل ذلك على أن مكياً يتبنى معياراً اجتماعياً في هذا الوصف؛ فاستعماله لمصطلح الكلام في هذا الموضع هو في الواقع انشغال بالجانب الأدائي المنطوق واحتفاء بالجانب المادي الواقعي من اللغة، وإدراك لما يكون من علاقة بين الخطاب المنطوق (أو الكلام المنطوق) والظروف الاجتماعية المحدقة (المحيطة) به، قال ابن جني: «.. الكلام لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة.. والكلام إنما هو الكَلْم، والكَلام والكُلوم وهي الجراح؛ لما يدعو إليه، ولما يجنيه في أكثر الأمر على المتكلمة» (ابن جني 2002م: 73/1 وما بعدها).

ولا شك أن هذا الذي يجني ما يجنيه على المتكلمة، ويحدث بهموبحايتهم ألواناً من التغيير، هو الجانب المنطوق من اللغة (أي: الكلام).

كما يظهر المقياس الاجتماعي عند مكي – أيضا – في توظيفه لتعبيري " أحرف مستعملة "، و " أحرف قليلة الاستعمال"، وفي ذلك إشارة إلى المسرح الاجتماعي وإلى الواقع اللغوي، وما يمكن أن يستعمله من أصوات منطوقة تظهر كثيراً أو قليلاً في كلام المتكلمين.

هذا، ويعد اعتماد مكي للمعيار الاجتماعي في توظيفه لمصطلح الكلام وفي تصنيفه للحروف الأصلية والحروف الفرعية...يُعد ذلك فكرة وبادرة مبكرة في ما يعرف اليوم بعلم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics).

وثمة مسألة أخرى لها تعلق بالحروف والحركات معاً ناقشها مكي وقد كانت شغلت علماء اللغة (ابن جني، 1424هـ – 2002م) قبله وهي مسألة محل الحركة من الحرف: قبله أم معه أم بعده، فاستعرض مكي بن أبي طالب آراء النحويين وأهل النظر فيها؛ فبدأ برأي سيبويه ومن تابعه وهو أن الحروف تحدث قبل الحركات، فذكر أدلة هذا الفريق، ثم عرض بعد ذلك لرأي القائلين بأن الحروف تحدث بعد الحركات وذكر أدلة هذا الفريق، أيضا ووصف رأيه بالضعيف «لأن الحركات التي تتولد منها الحروف، لا تنفرد بنفسها ولا بد أن تكون على حروف. فكيف تسبق الحروف وهي لا تنفرد من الحروف» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:99–100).

وأما الرأي القائل بأن الحركة تحدث مع الحرف فقال مكي بشأنه «وقال جماعة: الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر في الاستعمال، بل استعمالا معاً كالجسم والعَرَض، اللذين لم يسبق أحدهما الآخر» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 100). ويبدو أن مكياً يميل إلى هذا الرأي بدليل دفاعه عن هذا القول وسوقه لأدلة تؤكد صحته منها قوله: « إن الكلام الذي يجيء به للإفهام مبنى من الحروف، والحروف إن لم تكن في أول أمرها متحركة فهي ساكنة، والساكن لا يمكن أن يُبتدأ به، ولا يمكن أن يتصل به ساكن آخر في سرد الكلام لا فاصل بينهما، فلا بد ضرورة من كون حركة مع الحرف لا يتقدم أحدهما الآخر، إذ لا يمكن وجود حركة من غير حرف». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 101)

ولئن كان ما خلص إليه ابن جني حول سبب الخلاف بين العلماء في هذا الموضوع هو "لطف الأمر وغموض الحال" (ابن جني، 1424هـ – 2002م، صفحة 104/2) على المتقدمين، فإن مكياً يبدو أنه فصل في موقفه من الموضوع؛ فقد أحس بأن الحركة تحدث متصلة بالحرف اتصالاً مباشراً، بحيث لا يمكن فصلها عنه لأنها هي التي تؤكد وجوده وتبرزه وتجعله واضحاً في السمع.

فلا يمكن – إذا – الفصل بين الصوت الساكن (أو الحرف) وصوت اللين (أو الحركة) فصلا زمنياً بحيث يصدر أحدهما بعد الآخر، ولما « كانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف، صارت كأنها قد حلّته، وصار هو كأنه قد تضمنها» (ابن جني ، 2000م: 46/1)، وهذا الرأي قد تبناه من العلماء أبو علي الفارسي واستدل عليه بأن: « النون الساكنة إذا تحركت زالت عن الخياشيم إلى الفم، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة، فدل ذلك عنده على أن الحركة تحدث مع الحرف» (ابن جني، 2000م: 46/1)،

فالحركة متصلة بالحرف وتابعة له لأنها هي التي تحقق له الوجود الصوتي، وتبعيتها له « تبعية العارض للمعروض، لا تبعيتها له في الوجود اللفظي، فالتبعية رتبيةلازمانية» (الصبان، 1997م: 357/2).

والواقع أن إحساس مكي بن أبي طالب بأن الحركة تحدث متصلة بالحروف اتصالاً مباشراً بحيث لا يمكن فصلها عنه، هذا الإحساس أمر تؤكده الدراسات اللسانية الحديثة، فـ « مدة الانتقال (من نطق الصامت إلى نطق الصائت) قصيرة جداً بالنسبة إلى مدة الثبات قبله (أي: مدة نطق الميم في كلمة "ما"أثناء نطق الميم، وبعده أثناء نطق الفتحة الممدودة، ولذلك لا ندرك أكد الأصوات الانتقالية بالسمع» (برجشتراسر، د.ط، 1402هـ-1982م: 56).

2- الاختلاف في حروف المدّ والحركات.

عرض مكي بن أبي طالب إلى اختلاف العلماء في حروف المدّ والحركات: أيهما مأخوذ من الآخر، فقدم آراء النحويين في الموضوع وهي ثلاثة مذاهب: فالمذهب الأول وعليه أكثر النحويين يرى أن « الحركات الثلاث مأخوذة من الحروف الثلاثة: الضمة من الواو، والكسرة من الياء، والفتحة من الألف. واستدلوا على ذلك بما قدمناه من قول من قال: إن الحروف قبل الحركات، والثاني أبداً مأخوذ من الأول، والأول أصل له» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 103).

وأما المذهب الثاني فهو الذي يرى أن « حروف المد واللين الثلاثة مأخوذ من الحركات الثلاث واستدلوا أيضا على ذلك بأن الحركات إذا أُشبعت، حدثت منها هذه الحروف الثلاثة» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:104-105).

وأما المذهب الثالث فأورده مكي في قوله: « وقال بعض أهل النظر: ليست هذه الحروف مأخوذة من الحركات الثلاث، ولا الحركات مأخذوة من الحروف، إذ لم يسبق أحد الصنفين الآخر، على ما قدمناه من قول من قال: إن الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر، وهو قول صحيح إن شاء الله» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 106).

وهذا المذهب الثالث هو المذهب الذي جنح مكي إلى الأخذ به وقد وصفه بالصحة؛ فلا حروف المدّ واللين مأخوذة من الحركات، ولا الحركات مأخوذة من هذه الحروف، وهذا يتناسب تماماً مع موقفه السابق من أن كل طرف من الطرفين (حروف المدّ والحركات) مستقل عن الآخر دون أن يسبق أحدهما الآخر في الوجود الصوتي، قال أبو البقاء العكبري: « الحركة مع الحرف لا قبله ولا بعده وقال قوم منهم ابن جني هي بعده والدليل على الأول (أي الحركة مع الحرف) من وجهين:

أحدهما: أن الحرف يوصف بالحركة فكانت معه كالمدّ والجهر والشدة ونحو ذلك، وإنما كانت كذلك لن صفة الشيء كالعرف والصفة العرضية لا تتقدم الموصوف ولا تتأخر عنه إذ في ذلك قيامها بنفسها.

والثاني: أن الحركة لو لم تكن مع الحرف لم تقلب الألف إذا حركتها همزة، ولم تخرج النون من طرف اللسان إذا حركتها، بل كنت تخرجها من الخيشوم، وفي العدول عن ذلك دليل على أن الحركة معها». (السيوطي، د.ط، د.ت: 184/1 و185)

3- ما زادت العرب في كلامها عن التسعة والعشرين حرفاً.

تناول مكي بالذكر تلك الفروع (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 130) من الحروف التي توسعت بها العرب عن التسعة والعشرين حرفاً الأصلية في العربية، وأشار إلى أنها نوعان: نوع مستعمل في الكلام والقرآن كثيراً، ونوع آخر قليل الاستعمال في الكلام، ولا يستعمل في القرآن وهو شاذّ، وفيما يلي عرض لحروف النوعين:

أولاً: النون الخفيفة: قال مكي: «..التنوين، والنون التي تخفي عنه الكاف والجيم، وشبه ذلك، نحو النون الخفيفة التي تؤكد بها الأفعال لأن مخرجها من غير مخرج النون المتحركة، والنون الصحيحة السكون» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 107).

يشير مكي هنا إلى أن مصطلح النون الخفيفة يستعمل في مجالين من مجالات اللغة مجال الأصوات أو الصوتيات ومجال النحو؛ فحديثه عن النون التي تخفي عند الكاف والجيم فيه إشارة إلى النون الساكنة المتنوعة بكاف تأخذ شيئاً من خصائص الكاف وبالتالي يجتذبها الكاف إلى مخرجه وكذلك مع الجيم والفاء وغيرهما من أصوات الفم.

وأما حديثه عن النون الخفيفة التي تؤكد بها الأفعال فهو حديث عن أخذ نوعي النون المؤكدة أو نون التوكيد، والنون الأخرى هي النون الثقيلة.

ولا شك أن إيراد مكي لهذا المفهوم النحوي لمصطلح "النون الخفيفة" جاء من باب الاستقصاء والإحاطة بالمفهوم اللغوي على وجه العموم، بصرف النظر عن المجال الخاص الذي يخوض فيه كتابه.

كما تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن من علماء اللغة من استخدام مصطلح "النون الخفية" (ابن جني، 2000م: 61/1) إلى جانب مصطلح "النون الخفيفة".

ثانياً: الألف الممالة: وهي: « ألف بين الألف والياء، لا هي ألف خالصة ولا ياء خالصة، إنما هي ألف قريبة من لفظ الياء لعلل أوجبت ذلك» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 108).

الألف الممالة عند مكي – كما عند غيره من علماء اللغة والتجويد – هي تقريب صوتي بين الألف والياء، ومعناها الاتجاه بالألف إلى حالة ارتكازية وسطى بين الألف الخالصة والياء الخالصة، وقد أشار سيبويه إلى هذا المصطلح ولكنه وصف الألف الممالة هنا بـ " الألف الممالة إمالة شديدة" (سيبويه، د.ت: 432/4) ولم يذكر النوع الآخر الذي هو "الألف الممالة إمالة خفيفة ".

ولكن مكيا حين لم يحدد نوع الألف هنا: هل الألف الممالة إمالة شديدة أو تلك الممالة إمالة خفيفة، يكون بذلك قد عنى النوعين معاً، انطلاقاً من أن القراءة القرآنية اشتملت على النوعين (ابن الجزري، 1998م: 24/2) معا.

وأما إشارته إلى أن تقريب الألف من لفظ الياء إنما جاء « لعلل أوجبت ذلك» فلعله يقصد بذلك الأسباب الداعية للإمالة وأبرزها " التقريب بين الأصوات"، وقد ذكر مكي ما يدل على ذلك حين وصف الألف الممالة بأنها « قريبة » من لفظ الياء، قال ابن جني بهذا الصدد: «... الإمالة، إنما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصور وذلك نحو عالم، وكتاب، وسعى، وقضى، واستقضى، ألا تراك قربت فتحة العين

من "عالم" إلى كسرة اللام منه، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة، فأملت الألف نحو الياء، وكذلك سعى وقضى: نحو بالألف نحو الياء التي انقلبت عنها» (ابن جني، 2002م: 495/1 و496).

هذا، وتدخل الإمالة عند المعاصرين – من حيث سببها – في باب الانسجام الصوتي والتماس الخفة والتيسير في النطق (عبد الفتاح إسماعيل شلبي، د.ط، د.ت: 254 وما بعدها).

ثالثاً: الألف المفخمة: يقول مكي: « هي ألف يخالط لفظها تفخيم يقربها من لفظ الواو، كما كانت الألف الممالة ألفاً يخالط لفظها ترقيق يقربها من الياء، فهي نقيضة الألف الممالة» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 109).

فالألف المفخمة شكل آخر يتفرغ عن الألف الأصلية، إنها ألف يخالط لفظها تفخيم يجعلها قريبة من الواو، وذكر مكي أنها كانت شائعة وفاشية في لغة أهل الحجاز وكانوا ينطقونها في كلمات من القرآن مثل: « الصلاة »، و«مصلى»، و«الطلاق»، و«بظلام » وغيرها، وجعل هذا النطق من خصائص قراءة نافع التي رواها عنه ورش.

ولكن مكياً لا يعد هذا الفرع الصوتي من فروع الألف الأصلية المنتصبة.. لا يعده نوعا من أنواع الإمالة – كما ذهب إلى ذلك المعاصرون (عبد الغفار حامد هلال، 1996م: 77) من علماء الأصوات – وأن الذي دعا إلى هذا النوع من النطق – حسب مكي–إنما هو نفي جواز الإمالة.

فمكي – إذن – لا يعد هذا التفخيم للألف نوعاً من أنواع الإمالة، ربما لأن هذا التنويع النطقي لم يكن فاشيا إلا عند أهل الحجاز من العرب، وهو ما جعل علماء اللغة والقراءة ومنهم مكي يعدونه ظاهرة لهجية تتميز بها عربية أهل الحجاز دون غيرهم، فلم يصنفوها على أنها تنويع نطقي من تنويعات الألف في اللسان العربي.

رابعاً: الصاد: قال مكي هي: « التي يخالط لفظها لفظ الزاي نحو: "الزراط" و " قزد السبيل" وشبهه، فعلوا ذلك بها لقرب الزاي من الصاد إذ هما من مخرج واحد ومن حروف الصفير» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 109).

هذه الصاد التي يتحدث عنها مكي هي الصاد الساكنة إذ كان بعدها الدال أو كما سماها سيبويه الصاد التي كالزاي، قال في " باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه..": « فأما الذي يضارع به حرف من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كان بعدها الدال، وذلك نحو: مصدر، وأصدر والتصدير لأنهما قد صارتا في كلمة واحدة... فضارعوا به أشبه الحروف من موضعه وهي الزاي لأنها مجهورة غير مطبقة» (سيبويه، : 477/4 و478).

وهذه الظاهرة الصوتية يطلق عامة علماء القراءة والتجويد عليها مصطلح "الإشمام" للدلالة على خلط صوت الصاد بصوت الزاي، ولكن مكيا استعمل مصطلح " بين الصاد والزاي" وإن كان مصطلح "الإشمام" غير بعيد عن الدلالة اللغوية للكلمة، لأن الصاد صوت مهموس جاور الزاي المجهورة، فأُشم الصاد شيئا من خصائص الزاي (وهو الجهر) فصار اللسان ينبو عن حرفين مجهورين معاً، وحسن هذا الإشمام أو

المخالطة لأن الصاد والزاي من مخرج واحد، ومن حروف الصفير. (مكي بن أبي طالب القيسي، 1974م: 394/1)

والذي يظهر لي أن استعمال مكي لمصطلح " بين الصاد والزاي" في كتاب "الكشف" وكذا استعمال مصطلح المخالطة – كما مر – في كتاب "الرعاية" هو استعمال موفق، ذلك أنهما مصطلحان واضحان جدا لدى المتخصص بالقراءة، وأما المتعلمون للقراءة والمتدربون عليها فلا يقعون في لُبس مصطلح "الإشمام"؛ لأن هنالك إشماما في باب الوقف وإشماما آخر في باب الصرف، (غانم قدوري الحمد، 2007م: 428) فضلا عن الإشمام الصوتي الذي نحن بصدد الحديث عنه. وعمل مكي هذا يعد واحداً من خصائص المنهج الصوتي الذي ارتضاه في وضع كتابه هذا "الرعاية".

خامساً: همزة بين بين: قال مكي بن أبي طالب: «..هي مستعملة في كلام العرب، وفي القرآن يجعلون الهمزة مخففة بين الهمزة والألف، وبين الهمزة والواو وبين الهمزة والياء» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 110 و111).

الهمزة "بين بين" شكل مخفف من الهمزة المحققة قال سيبويه في "باب الهمز": « وأما التخفيف فتصير الهمزة فيه " بين بين" ... وأعلم أن كل همزة مفتوحة كانت قبلها فتحة فإنك تجعلها إذا أردت تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة... وإذا كانت الهمزة منكسرة وقبلها فتحة صارت بين الهمزة والياء الساكنة كما كانت المفتوحة بين الهمزة والألف الساكنة... وإذا كانت الهمزة مضمونة وقبلها فتحة صارت بين الهمزة والواو الساكنة» (سيبويه، د.ت: 541/3 و542).

وإذا كان سيبويه قد ذكر أن صور التخفيف هذه في الهمزة إنما هي تقريب لها من الحرف الذي حركتها منه، وكأنها بذلك – بحسبه –تنتقل بمخرجها إلى مخرج الحرف الذي منه حركتها، وهذا ما أشار إليه السيرافي (محمد هارون: 541/3) في شرحه لكلام سيبويه، فإذا كان هذا هو مراد سيبويه أو على الأقل ما فهم من كلامه، فإن مكيا لا يفهم من كلامه أنه يريد بمعنى التخفيف "انتقال مخرج الهمزة" بدليل قوله: « فلا هي همزة محققة خالصة، ولا هي حرف آخر خالص غير الهمزة »، فلم يشير بذلك إلى مخارج الحروف التي منها حركتها (وهي الألف، والواو، والياء)، كما فعل السيرافي.

والذي يغلب على الظن أن الذي قصده مكي بتخفيف الهمزة هو حدوث تغيّر في صفة الشدة في الهمزة، بحيث تتحول إلى الرخاوة فتصير كالهاء المجهورة – وهي من مخرجها – فتكون وسطاً بين التحقيق وبين أن تكون صوتا من أصوات اللين.

يضاف إلى ما سبق أن مكيا ذكر حروفا أخرى فرعية؛ بعضها لم يستعمل في القرآن، وبعضها الآخر قليل الاستعمال في الكلام وهي:

أولاً: حرف " بين الشين والجيم": قال مكي: « وهي لغة لبعض العرب، يبدلون من كان المؤنث شيئا يخالط لفظها لفظ الجيم» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 111).

عدّ مكي هذا الحرف سادساً بين الحروف الفروع للحروف العربية الأصلية، ونص على أنه لم يستعمل في القرآن، غير أن ذكره سادساً بين تلك الحروف يدل على أنه كان معروفاً في كلام العرب، ومن الحروف

المشهورة في الاستعمال وإن كان لغة لبعض العرب، ويسمى في الاصطلاح " الكشكشة " وهي « قلب الكاف التي يليها صوت لين أمامي (وهو الكسرة) أيّا كان موضعها في الكلمة، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك (وهو الشين)» (إبراهيم أنيس، د.ت: 108).

ثانياً: حرف " بين القاف والكاف"، وحرف " بين الجيم والكاف" وأمثلتها مما أورده مكي هي: «أنهم يقولون في القوم: الكَوم، وفي " جمل": كَمل» (مكي بن أبي طالب القيسي، – 2008م:112).

والذي يظهر من هذا الكلام أنه يعني ذلك الحرف الذي كانت العرب أحياناً تُضطر إلى نطقه في كلمات ليست من لغتها، وهو حرف " الكاف الفارسية " – النظير المجهور للكاف العربية – يقول سيبويه في باب " اطراد الإبدال في الفارسية": « يبدلون من الحرف الذي بين الكاف والجيم: الجيم، لقربها منها. ولم يكن من إبدالها بد؛ لأنها ليست من حروفهم وذلك نحو: الجُربُز، والآجرّ، والجَورب. وربما أبدلوا القاف لأنها قريبة أيضاً قال بعضهم: قربزّ، وقالوا: كُربَقّ وقُربَقّ » (سيبويه، د.ت: 305/4).

سابعاً: صفات الحروف وألقابها ومخارجها وما يلحقها من تغيرات.

تناول مكي في الرعاية صفات الحروف وألقابها ومخارجها، ففصل القول فيها معللا لألقابها وممثلا لها، كما عين لكل حرف مخرجه وكيفية النطق به وتجويده بحسب ما يأتي قبله أو بعده من الحروف، وما يلحق به من تغيرات وأحوال مختلفة نتيجة لقانون التجاور في التركيب.

وفيما يلي بيان ذلك:

1- الصفات التي لها ضدّ.

تتبع مكي ألقاب الحروف التسعة والعشرين وصفاتها وعللها فجمع من ذلك أربعة وأربعين صفة، لكل حرف منها ما يدل على معنى وفائدة لا يشركه فيها غيره، وخلص من ذلك إلى أن الحروف نوعان: (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 115)

حروف تشترك في بعض الصفات وتفترق في بعض والمخرج واحد، وحروف تتفق في الصفات والمخرج مختلف.

ويشير إلى أنه لا توجد حروف اتفقت في الصفات والمخرج في لغة واحدة، لأن ذلك يوجب اشتراكها في السمع فيكون اللفظ واحداً ولا يتحقق التباين بين الحروف المفضي إلى الإفهام والإبلاغ؛ فتباين الحروف يتولد عنه تباين دلالات الكلمات المركبة من هذه الحروف، وبذلك يتمكن المتكلم من التعبير عن مختلف المعاني التي يريد التعبير عنها.

وعملنا – في هذا العنصر – هو تناول الصفات والألقاب المتضادة التي ذكرها مكي، وبيان ما أضافه من جديد التحليل والتعليل في مفهومها، مع الإشارة إلى أننا سنجمع الصفتين الضدين معاً توخياً للاختصار ما أمكن.

أ. **الحروف المجهورة والحروف المهموسة:**

قال مكي: « الحرف المجهور حرف قوي يمنع النفس أن يجري معه عند النطق به لقوته وقوة الاعتماد عليه في موضع خروجه». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:117)

يظهر من هذا التعريف للحرف المجهور أن مكياً أضاف تعديلا على تعريف سيبويه (سيبويه، د.ت: 434/4) للمجهور، ولكنه حافظ على الألفاظ الأساسية فيه، وزاد عليه بأن وصف الحرف المجهور بأنه " قوي "، وهي زيادة مهمة إذا عرفنا أن مكياً وعلماء القراءات والتجويد اشتهر بينهم تصنيف الحروف إلى "قوي" و "ضعيف" انطلاقاً من اتصافها بصفات مثل: الجهر والشدة والاستعلاء وغيرها. (بلقاسم مكريني، 2013م: 320)قال مكي: « الجهر: الصوت الشديد القويّ فلما كانت في خروجها كذلك لقبت به، لأن الصوت يجهر بها لقوتها» (مكي بن أبي طالب القيسي، – 2008م: 117).

وأما الحرف المهموس فهو حرف « جرى مع النفس عند النطق به لضعفه وضعف الاعتماد عليه عند خروجه » (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 116).

وتعليل تلقيبه بهذا اللقب – عند مكي – هو أن الهمس لغة: هو الحسن الخفي الضعيف قال صاحب اللسان: « الهمس: الخفي من الصوت والوطء، والأكل، وقد همسوا الكلام همساً» (ابن منظور، 2005م: 344/4).

هذا، ولم يختلف مكي عن سيبويه وسائر اللغويين في عدة الحروف المهموسة وهي عشرة أحرف يجمعها قولك: «ستشحثك خصفة » أو « سكت فحثه شخص ».

ب. الحروف الشديدة والحروف الرخوة.

عرّف مكي الحرف الشديد بأنه: « حرف اشتد لزومه لموضعه، وقوي فيه حتى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 117).

ويرى مكي أن الشدة في الحرف من علامات القوة فإذا أضيفت إليها صفات مثل: الجهر والإطباق والاستعلاء فذلك غاية القوة في الحرف، ثم يوجه مكي بعد هذا الكلام نصيحة تعليمية لمن يتصدى لتعلم قراء القرآن والعربية، وهي أن يحافظ القارئ في قراءته على تلك الخصائص والسمات في كل حرف من الحروف بأن يتدرب عليها ويتقنها، وهذه الملحوظة من مكي تعبّر عن رؤية منهجية مؤداها: أن إدراك الخصائص المميزة لحرف من الحروف في جانب الصفات أو حتى فيجانب المخارج، تعد مفتاحاً رئيساً في تعلّم ألفاظ القرآن وفهم تراكيبه.

كما أشار مكي عملياً إلى طريقة إدراك تلك الخصائص والسمات، بحيث يتبع علماء العربية في هذا نسقاً خاصاً هو الإتيان بهمزة يُعتمد عليها في ذوق هذا الحرف أو ذاك نحو: " أَقْ"، " أكْ". أو كما أشار مكي إلى ذلك في طريقة ذوق وتعلّم الحرف الشديد حين قال: « ألا ترى أنك تقول في الحرف الشديد "أجّ" "أدّ" فلا يجري النفس، مع الجيم والدال» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 118).

وأما حول تعليل تلقيب هذه الحروف بـ "الشديدة" فقد ذكر مكي أن ذلك بسبب « اشتداد الحرف في موضع خروجه حتى لا يخرج معه صوت »؛ (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 118) فاشتداد الحرف، يشير به إلى الانسداد التام في مخرج الحرف حتى لا يخرج معه صوت، أي حتى لا يخرج معه هو مسموع؛ فالصوت هنا بمعنى: الأثر المسموع، وهذه الرؤية – في الواقع – تتقاطع مع ما توصلت إليه نتائج الدراسات الصوتية الحديثة حول طبيعة الشدة في الأصوات، فقد أجمعت هذه الدراسات على أن تيار الهواء

« يصبح من غير الممكن إطلاقاً مروره عبر القناة النطقية؛ ولهذا ينضغط الهواء خلف نقطة النطق أي المخرج» (ديفيد ابركرومبي، 1988م: 75).

وأما الحرف الرخو فهو: « حرف ضعف الاعتماد عليه في موضعه عند النطق به فجرى معه الصوت، فهو أضعف من الشديد، ألا ترى أنك تقول: "الس" "الش"، فيجري النفس والصوت معاً، وكذلك أخواتها بخلاف الشديدة» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 119). فإشارة مكي في هذا التعريف إلى جريان النفس والصوت معاً – في الحرف الرخو – يدل على أنه يفرق وبوضوح شديد بين " الصوت" و " النفس"، (المرعشي، 2008م:123)خلافاً لما وقع فيه بعض علماء اللغة من خلط بين مفهومهما كأبي العباس المبرد (ت 285هـ) حين استعمل مرة " جريان الصوت" ومرة أخرى " جريان النفس". (المبرد، 1999م: 225/1)

كما أن ملاحظة مكي لجريان الصوت والنفس معاً في الحرف الرخو ملاحظة صحيحة تقترب من وصف بعض المعاصرين للحروف الرخوة بأنها « أصوات " متمادة" بمعنى أنه يمكن الاستمرار في نطقها ما أسعف النفس». (محمد السعران، د.ط، د.ت: 166)

هذا، ولا خلاف بين مكي وسائر علماء اللغة والقراءات في عدد الحروف الرخوة التي هي عدا الثمانية من الأحرف الشديدة والتي يجمعها قولك: " أَجِدك قُطِبتَ".

ت. الحروف المطبقة والحروف المنفتحة:

حروف الإطباق « أربعة أحرف: الطاء، والظاء، والصاد، والضاد، وإنما سميت بحروف الإطباق، لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بهذه الحروف، وتنحصر الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في الفم (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 122).

إن هذا التعريف للإطباق لا يختلف كثيراً عن تعريف سيبويه له حيث قال: « هذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف» (سيبويه، د.ت: 436/4). فاستخدم سيبويه عبارة "انطبق لسانك"، بينما كان مكي أكثر تحديداً منه حين استخدم عبارة " طائفة من اللسان"، فبحسب مكي أن الإطباق يكون بانطباق جزء من اللسان وليس كل اللسان، وبالفعل فإنه مع الأصوات المطبقة يرتفع طرف اللسان وأقصاه ويتقعر وسطه، ويرجع إلى الوراء قليلاً. (إبراهيم أنيس، 1971م: 62)

ويعود بنا مكي مرة أخرى إلى موضوع القوة والضعف في صفات الحروف، وقد رأينا من قبل –في صفتي الجهر والشدة – كيف عدّ هاتين الصفتين من صفات القوة في الحروف، فكذلك نجده في موضوع الإطباق فقد عد هذه الصفة من صفات القوة في حروف الإطباق، ورأى أنها درجات؛ فالحروف المطبقة بعضها أقوى من بعض والطاء أقواها جميعاً (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 122 و123).

والحق أن مكياً – في حديثه عن نظرية القوة والضعف هذه – يكاد يكون أقدم من تكلم من علماء التجويد في هذا الموضوع وعرض تفصيلاته في مؤلفاته – ومنها كتاب " الرعاية" – بل وعقد في كتاب

"الكشف" بابا كاملاً سماه "باب في معرفة الحروف القوية والضعيفة"، وليس واضحاً – على وجه الدقة عند مكي – المراد بقوة الحرف وضعفه بالنظر إلى قوة الصفة أو ضعفها، ولكننا يمكن أن نرجح أن يكون ذلك متعلقاً بقوة وقع الصوت في الأذن ودرجة وضوحه في السمع، (غانم قدوري الحمد، ط2، 1428هـ-2007م، صفحة 283) أو أن يكون معنى القوة والضعف هنا مرتبط ارتباطاً تاماً بتوتر أعضاء النطق، أو تراخيها، أثناء عملية النطق. (تمام حسان، د.ط، 1990م: 153)

وأما حروف الانفتاح فقد ذكر مكي أنها خمسة وعشرون حرفاً، وهي ما عدا حروف الإطباق المذكورة.

ث. الحروف المستعلية والحروف المستفلة:

حروف الاستعلاء «سبعة: منها الأربعة الأحرف التي هي حروف الإطباق المذكورة، والغين، والخاء، والقاف، وإنما سميت بالاستعلاء لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك فينطبق الصوت مستعلياً بالريح مع طائفة من اللسان مع الحنك مع حروف الإطباق المذكورة على هيئة ما ذكرنا ولا ينطبق مع الخاء والغين، والقاف، إنما يستعلي الصوت غير منطبق بالحنك». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 123)

ميّز مكي بن أبي طالب في تعريفه لصفة الاستعلاء بين الأصوات المطبقة التي ينطبق الصوت معها مستعليا بالريح مع طائفة من اللسان.. وبين أصوات الخاء والغبن والقاف التي يستعلي معها الصوت من غير انطباق بالحنك، ولا ندري على وجه التحديد ما الذي يريده بـ " انطباق الصوت" فهي عبارة غامضة؛ لأن الذي ينطبق هو اللسان وليس الصوت، قال ابن الوجيه الواسطي: «الاستعلاء: هو اتصال اللسان بالحنك الأعلى عند النطق بالحرف» (ابن الوجيه الواسطي، 1998م: 39).

وأما الحروف المستفلة فهي ما عدا الحروف المستعلية المذكورة « وإنما سميت مستفلة، لأن اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق بها إلى الحنك كما يستعلي عند النطق بالحروف المستعلية المذكورة» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 123 و124).

فمصطلح الاستفال لم يعرف – قبل مكي – بوصفه مصطلحاً يطلق على تلك الطائفة من الحروف، ولم يعنَ بتعريفه قبله أحد من العلماء، غير أن سيبويه، (سيبويه، د.ت: 129/4 و130) أشار إليه في معرض حديثه عن الإمالة، ويمكن استنتاجه أيضا من ذكره لتعريف الاستعلاء.

ج. الحروف المصمتة والحروف المذلقة:

الحروف المصمتة هي: « الممنوعة من أن تنفرد في كلمة طويلة من قولهم: " صمت": إذا منع نفسه الكلام، ومعنى الحروف المذلقة أنها حروف عملها وخروجها من طرف اللسان وما يليه من الشفتين» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 136).

والحروف المذلقة ستة أحرف: ثلاثة تخرج من الشفة، ولا عمل للسان فيها، وهي الفاء والباء والميم، وثلاثة تخرج من أسلة اللسان إلى مقدم الغار الأعلى، وهن الراء، والنون، واللام... والمصمتة هي ما عدا هذه الحروف الستة من الحروف (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 136).

وقد أغفلت الدراسات الصوتية الحديثة البحث في هاتين الصفتين – الإذلاق والإصمات – بسبب أنها من المصطلحات ذات الطبيعة الصرفية الاشتقاقية.

2- الصفات التي ليس لها ضدّ.

أ. حروف الصفير:

قال مكي: « وهي ثلاثة: " الزاي"، و "السين"، و "الصاد" وإنما سميت بحروف الصفير لصوت يخرج معها عند النطق بها يشبه الصفير، ففيهن قوة لأجل هذه الزيادة التي فيهن، فالصفير من علامات قوة الحرف» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 124).

يشير مكي في هذا التعريف إلى صفة من الصفات المميّزة لحروف: "الزاي" و "السين" و "الصاد" وهي "الصفير"، وهي من صفات القوة فيها، ومن أجل ذلك يقول سيبويه عنهن « وهنّ أندى في السمع»، (سيبويه، د.ت: 464/4) وقال السيرافي عنها: « وأصواتها فاشية رخوة جارية، تزيد فشواً على غيرها من حروف الفم» (السيرافي، د.ط، د.ت: 66 و67). وهذا "الندى" و "الفشو"- الذين تحدث عنهما سيبويه والسيرافي- ليس إلا قوة الوضوح السمعي في هذه الأصوات – كما يسميه المعاصرون- بما تحدثه من صفير أو أزيز، قال ماريو باي: « ويوصف الصوتان س/ ز غالبا بأنهما صفيريان (sibilants) لما يصاحبهما من صفير أو أزيز، وهما في الحقيقة صوتان من النوع الاحتكاكي» (ماريو باي، 1998م: 85).

ب. حروف القلقلة:

قال مكي: « ويقال اللقلقة: وهي خمسة أحرف يجمعها هجاء قولك: "جد بطق"، وإنما سميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن، وإرادة إتمام النطق بهن» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 124).

صفة القلقلة في أصوات (قطب جد)، صفة مميّزة، وصفها مكي بأنها "صوت يشبه النبرة"، هي ناتجة عن انفتاح مخرج الصوت الشديد ومكمّل للصوت، (غانم قدوري الحمد، د.ط، 1423هـ-2002م: 122) وتكون – كما أشار مكي- أكثر ظهوراً في الوقف منه في الكلام المتصل. وذكر أيضاً أن أصل هذه الصفة للقاف لأنه « حرف ضغط عن موضعه. فلا يقدر على الوقف عليه إلا مع صوت زائد لشدة ضغطه واستعلائه» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 124).

ت. حروف المدّ واللين:

قال مكي: « وهي ثلاثة أحرف: " الألف"، و " الواو الساكنة التي قبلها ضمة "، و " الياء الساكنة التي قبلها كسرة"، وإنما سميت بحروف المدّ لأن مدّ الصوت لا يكون في شيء من الكلام إلا فيهن... ولأنهن في أنفسهن مدّات. والألف هي الأصل في ذلك، و" الياء" و "الواو" مشبهتان بالألف..» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 125).

فوظيفة هذه الحروف – عند مكي – هي مدّ الصوت بها، ولكن هنالك اختلاف بين تلك الحروف في هذا المدّ؛ فـ "الألف" هي الأصل في المدّ أو أنها « أكثر التصاقاً بالمدّ» كما قال، على حين أن "الواو" و "الياء" قد يخرجان عن المدّ إلى ما يشبه " الصحة " في حال تغير حركة ما قبلها عن جنسهما، وهو ما جعل

مكي يطلق عليهما – وهما في هذه الحال – مصطلح " حرفي اللين" وعلّل لذلك بأنهما « يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان لكنهما نقصتا عن مشابهة الألف لتغيُّر حركة ما قبلهما عن جنسهما فنقصتا المدّ الذي في الألف، وبقي فيهما اللين لسكونهما فسميتا بحرفي اللين» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 126).

ويفهم من هذا الكلام أن خروج "الواو" و "الياء" عن صفة المدّ إلى صفة اللين إنما كان لأنهما خرجتا في قلة كلفة على اللسان، وهي إشارة إلى أن التحول من المدّ إلى اللين – في الواو والياء – إنما حدث بسبب ظهور بعض الاحتكاك عن طريق اللسان، وهو أمر تؤكده الدراسات الحديثة فـ « التجارب الدقيقة دلت على أن ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو في مثل (بَيْت، يَوْم) يُسمع لهما نوع من الحفيف». (إبراهيم أنيس، 1971م: 42)

ث. الحروف الهوائية:

"الهوائية"– عند مكي – صفة لحروف المدّ واللين « وإنما سميت بالهوائية لأنهن نسبن إلى الهواء، لأن كل واحدة منهن تهوي عند اللفظ بها في الفم» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 126).

وهي عند الخليل صفة لحروف المدّ إضافة إلى حرف الهمزة، وعلّل لوصفها بالهوائية بقوله: « لأنها لا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف» (الخليل بن أحمد الفراهيدي، 1967م: 64).

والملاحظ من النصين السابقين أن مكياً لم يتابع الخليل في عده الهمزة حرفاً من حروف الهواء، وهو في هذا مصيب لأنها تختلف عن حروف المدّ من حيث الطبيعة الصوتية، ومن أجل ذلك وجدنا أن مصطلح "الهوائية" استقر وشاع – عند العلماء – صفة لحروف المدّ لا غير.

ج. الحروف الخفية:

الحروف الخفية عند مكي: « أربعة: " الهاء" وحروف المدّ واللين المتقدمة الذكر، وإنما سميت بالخفية لأنها تُخفى في اللفظ إذا اندرجت بعد حرف قبلها، إنما لفظها في هذا خفي بين حرفين، أو بعد حرفين، أو بعد حرف أو حروف هواء». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 127)

يفهم من كلام مكي حول هذه الصفة في حروف المدّ أنها تعني: عدم وضوح الصوت في السمع لاتساع المخرج، وعبارة " تُخفى في اللفظ" عبارة غير واضحة، إلا أن يكون السكون – أو عدم الحركة – في حروف المدّ هو ما أوهم مكياً أنه سبب في خفاء الصوت وعدم وضوحه، ومن ثم تكون حروف المدّ التي اعتبرها علماء العربية حروفاً ساكنة، أي غير متحركة، هي حروف خفية من وجهة نظرهم، ولم يفطنوا إلى أنها – وعلى العكس من ذلك تماماً – هي أقوى الأصوات إسماعاً ووضوحاً (كمال محمد بشر، د.ط، 2000م: 218) من غيرها.

ح. حروف التفخيم:

قال مكي: « وهي حروف الإطباق المذكورة، يتفخم اللفظ بها، لانطباق الصوت بها بالريح من الحنك، ومثلها في التفخيم في كثير من الكلام: "الراء" و "اللام"، و " الألف"، نحو: « ربّكم »، و « رحيم »، و «الصلاة » و « الطلاق » في قراءة ورش» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 128 و129).

فحروف الإطباق، إضافة إلى "الراء"، و "اللام"، و "الألف": هي الحروف الموضوعة بالتفخيم عند مكي؛ فأما في حروف الإطباق، فقد أشار – وهو يتحدث عن الطاء – إلى أن التفخيم أمكن فيها من أخواتها، وجميعها يتفخم اللفظ بها، ثم تحدث بعد الكلام عن التفخيم في " الراء" و " اللام " و " الألف"، ويذكر أن ذلك يحدث في كثير من الكلام وهذا تحديد مهم؛ فكأن التفخيم في أصوات الإطباق صفة ثابتة أصلية، وفي غيرها يُعدّ صفة تعاملية سياقية لا غير.

خ. حروف الإمالة:

ذكر مكي أن حروف الإمالة ثلاثة وهي: " الألف" و "الراء" و "هاء التأنيث" « وإنما سميت حروف الإمالة لأن الإمالة في كلام العرب لا تكون إلا فيها... ومعنى الإمالة أن تميل الفتحة نحو الكسرة وتميل الألف نحو الياء »، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 129) ومن اللافت هنا أن مكياً قد جعل الراء – كما رأينا في صفة التفخيم – من حروف التفخيم وهي هنا من حروف الإمالة، وتفسير ذلك أن الراء من الحروف التي تمنع الإمالة إذا كانت قبل الألف أو بعدها وغير مكسورة.

د. الحروف المشربة:

وهي عند مكي الحروف التي اتسعت العرب فيها فزادتها على التسعة والعشرين المستعملة وهي حروف مشربة بغيرها وهي مخالطة لها لأن غيرها يخالطها في اللفظ. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 130).

ذ. الحرف المكرّر:

الحرف المكرّر عند مكي هو: "الراء" وسبب تكريره أن اللسان «يرتعد به» ونصّ مكي على أن القارئ لابد له من إخفاء التكرير، لأن إظهار ه يُعدُّ لحناً في القراءة، ولعله يقصد بالإخفاء عدم المبالغة في تكرير الراء والمطلوب هو أن يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثة لتتكون الراء العربية (إبراهيم أنيس، 1971م: 67).

ر. حرفاً الغنة:

حرفا الغنة هما: النون والميم الساكنتان « سميتا بذلك، لأن فيهما غُنّة تخرج من الخياشيم عند النطق بهما»، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 131) وقال مكي – في باب الغنّة –: « الغُنّة حرف مجهور شديد لا عمل للسان فيها»، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 240) وهذا كلام يخالف تماماً ما أجمع عليه علماء اللغة والتجويد، ولعله أراد بذلك أن محل الغنة مغاير (وهو الخيشوم)، فعدّها لذلك حرفاً مستقلاً كباقي الحروف وهو ما يفسر عقده بابا للغنة، مع باقي الحروف العربية.

ز. حرفا الانحراف:

الانحراف عند مكي يكون لحرفين هما: اللام والراء، ومفهوم الانحراف عنده في اللام أن اللام وهي من الحروف الرخوة انحرفت إلى صفة الشدة، وأما الانحراف في الراء فهو انحرافها عن مخرج النون إلى مخرج اللام. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 131 و132)

ويبدو من كلام مكي أنه يعطي لمفهوم الانحراف – في اللام والراء – معنى خاصاً يخالف فيه سيبويه وجمهور اللغويين.

س. الحرف الجرسي:

الحرف الجرسي – عند مكي – هو الهمزة « سميت بذلك، لأن الصوت يعلو بها عند النطق بها، ولذلك استثقلت في الكلام»، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 133) وقال مكي – في صفة " الحروف الخفية" –: « وقد ذكر بعض العلماء أن في الهمزة خفاءً يسيراً». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:128)

ويستنتج من النصين السابقين أن الهمزة حرف خفي عصي في النطق فوجب إخراجه بصوت عال قصد تحقيقه، ومع أن «كل الحروف يصوّت بها عند النطق بها لكن الهمزة لها مزية زائدة في ذلك». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 133)

ش. الحرف المستطيل:

الحرف المستطيل وهو: « الضاد، سميت بذلك، لأنها استطالت على الفم عند النطق بها، حتى اتصلت بمخرج اللام»، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 134) وعلى حين أن سيبويه (سيبويه، د.ت:432/4) وصف الضاد بالمستطيل بسبب رخاوتها، فإن مكياً يرى أن استطالة الضاد كانت بسبب اجتماع صفات القوة والجهر والإطباق فيها. كما أن سيبويه يضيف إلى صفة "الاستطالة " حرف الشين. (سيبويه، د.ت: 457/4) ولكن مكياً اعتبر حرف الضاد منفرداً بهذه الصفة دون غيره من حروف اللغة، وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء قديماً وأيدته الدراسات الصوتية العربية المعاصرة.

ص. الحرف المتفشي:

الحرف المتفشي هو « " الشين" سميت بذلك، لأنها تفشت في مخرجها عند النطق بها حتى اتصلت بمخرج الظاء »، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 134) وعرّف مكي هذه الصفة بأنها « كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك»، وهذا التعريف – في نظري – يفتح المجال لإدخال حروف أخرى مع الشين في هذه الظاهرة، وهو ما فعله مكي حين أضاف حرفي " الثاء " و " الضاد " إلى صفة التفشي.

ض. الحروف الصمّ:

قال مكي: « وهي الحروف التي ليست من الحلق، وهي ما عدا السبعة الأحرف الخارجة من الحلق وهي: الهمزة، والهاء، والألف، والعين، والحاء، والغين، والخاء، فما عدا هذه السبعة الأحرف يقال لها: صمّ». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 137)

ويعلل مكي لهذه التسمية – في الحروف الصمّ – بأنها سميت صمّاً لتمكنها في خروجها من الفم واستحكامها فيه، والظاهر أنه لم يسبق مكي أحداً – من العلماء غير الخليل – في تدقيق النظر في الطبيعة

الصوتية لهذه الحروف، وتمييزها عن الحروف المصمتة. كما أن تسميتها " بالحروف الصمّ" تعود له أيضاً أما الخليل فقد سماها " الحروف الصتم".

ط. الحرف المهتوف:

الحرف المهتوف هو « الهمزة، سميت بذلك لخروجها من الصّدر كالتهوع فتحتاج إلى ظهور صوت قوي شديد». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 137 و138)

اختلف مكي عن الخليل وغيره من العلماء في إطلاق مصطلح "المهتوف" بدل " المهتوت" الذي أطلقه الخليل وصفاً لحرفي: الهمزة والهاء، وحمل عنده معنى: الضعف وانخفاض الصوت، وأما مكي فقد أطلق وصف " المهتوف" على الهمزة لشدة الصوت بها وقوته، والهتف: الصوت الشديد.

ظ. الحرف الراجع:

الحرف الراجع عند مكي « هو الميم الساكنة سميت بذلك لأنها ترجع في مخرجها إلى الخياشيم، لما فيها من الغنة» (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:138).

ولكن مكياً يضيف إلى الميم حرفاً آخر وهو النون لأنها ترجع أيضاً إلى الخياشيم.

ع. الحرف المتّصل:

الحرف المتّصل عند مكي هو "الواو" لأنها تهوي في مخرجها في الفم، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 138) ولم يكتب بهذا المصطلح الاستقرار في دراسات العلماء كما استقر مصطلحا: "الهاوي" و "الهوائي"، اللذان يدلان على المعنى المقصود ذاتة.

3- مخارج الحروف وصفاتها وما يلحقها من تغيّرات.

نتناول في هذا العنصر مخارج الحروف عند مكي بن أبي طالب، وقد استخلصناها من الأبواب التي عقدها للحروف العربية، غير أننا سنتتبع في عرضها مواضع نطقها وتحقيقها في مخارج الحلق واللسان والشفتين وهكذا.

أ. مخرج الحلق:

وحروفه: الهمزة والهاء، والألف، والعين، والحاء، والخاء والغين.

- **حرف الهمزة:** وموضع نطقها من أول مخارج الحلق من آخر الحلق مما يلي الصدر، (مكي بن أبي طالب القيسي2008م: 145) وهذا المخرج يسميه المحدثون مخرج الحنجرة، ولكن مكيا والقدماء في عمومهم لم يعرفوا الحنجرة ومن ثم أطلقوا على هذا الموضع " آخر الحلق" أو " أقصى الحلق" وهم في ذلك على صواب. (كمال محمد بشر، د.ط، د.ت:124)

وأما أبرز ما لاحظه مكي على نطق الهمزة في قراءة القرآن فقد نبه على التوسط في اللفظ بها وعدم المبالغة والتعسف في إخراجها، فقد نقل عن أبي بن عياش: أن إمام ابن عياش كان يبالغ في نطق الهمزة في «مؤصدة» ولم يذكر مكي مثالاً غير هذا، فإذا كان الأمر هنا يتعلق بالهمزة الساكنة غير المتحركة، فيعني ذلك أن هذا الإمام المبالغ في نطقها كان يأتي في نطق الهمزة بصوت يشبه صوت القلقلة التي تكون في حروف القلقلة، وبعض المحدثين يرى أن المبالغة في نطق الهمزة يكون بتحويلها – في النطق – إلى

عين وهو ما يسمى عند العلماء بظاهرة العنعنة (رمضان عبد التواب، ط1، 1417هـ-1996م، صفحة 41 وما بعدها).

- **حرف الهاء:** وموضع نطقها من مخرج الهمزة، من وسط المخرج الأول من مخارج الحلق. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 155)

ومما لاحظه مكي في نطق هذا الحرف أنه على القارئ أن يتحفظ بيانها حيث وقعت لأنها حرف خفي، وهي في هذه الصف مشاركة لحروف المدّ عند مكي – كما رأينا في صف الحروف الخفية- وهو أمر تؤكده الدراسات الحديثة؛ فالفم عند النطق بالهاء يتّخذ وضعاً يشبه الوضع الذي يتخذه عند النطق بأصوات اللين، ويسمع للهاء نوع من الحفيف لولاه لكانت الهاء أقرب إلى صوت لين عادي (إبراهيم أنيس، 1971م: 89 و90).

- **حرف الألف:** وموضع نطقه من مخرج الهمزة والهاء من أول الحلق. (مكي بن أبي طالب القيسي، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ، 1428هـ – 2008م)

وأبرز ما نبه عليه مكي في نطق الألف أن يلفظ بها القارئ حيث وقعت غير مفخمة ولا ممالة، وهذا هو الأصل فيها، ولكن مكياً ينص أيضا على أن الإمالة والتفخيم في الألف يجب أن يؤخذا عن قارئ متقن، مما يعني أن مواضعها في القراءة القرآنية محدودة ومن ثمّ لزم معرفتها بطريق الرواية.

- **حرف العين:** وموضع نطقه من أول المخرج الثاني من مخارج الحلق الثلاثة مما يلي الفم (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 162).

ينبه مكي بن أبي طالب القارئ إلى أن يتحفظ بلفظ العين ويعطيها حقها، خاصة إذا كانت ساكنة حتى لا تصير كالحاء، وإعطاؤها حقها يعني: جهرها حتى لا تتحول إلى نظيرتها المهموس (الحاء). (إبراهيم أنيس، 1971م: 89)

- **حرف الحاء:** من مخرج العين المذكور، وهو المخرج الثاني من الحلق (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 164).

يشير مكي إلى ضرورة إظهار لفظ الحاء إذا جاورتها العين لأنها من مخرجها، وإذا كانت الحاء ساكنة كان البيان لها آكد خشية أن تدغم في غيرها، كما يجب أن تُظهر أيضاً إذا جاورتها حاء مثلها، وإظهار الحاء أو بيانها هو تمكين الهواء من الاحتكاك بجدران الحلق احتكاكاً يتولد عنه جرس الحاء، وذلك الاحتكاك هو الذي يميّز جرس الحاء بالبحّة. (محمد حسن حسن جبل، 2006م: 87)

- **حرف الخاء:** ويتحقق نطقه في أول المخرج الثالث من مخارج الحلق مما يلي الفم. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 168)

لاحظ مكي أن بعض الطلبة يشددون الخاء من "الأخِ" – بالكسر- ونبّه على أن ذلك خطأ فاحش، لأنها مخففة مكسورة، ولكن مكيا لم يذكر لنا سبب ذلك، وفي نظري أن الوقف على مثل "الأب" بالسكون يتولد عنه قلقلة الباب حتى تظهر في السمع، وبعضهم إذا جاء بالقلقلة تجاوز بها إلى تشديد الباء ظنا منه

أنه إنما يحقق القلقلة، وهذا غير صحيح، فربما وقع بعض الطلبة والمريدين في مثل هذا مع كل الحروف الموقوف عليها حتى وإن كانت متحركة في مثل "الأخِ" التي ذكرها مكي.

- **حرف الغين:** وهي من مخرج الخاء بعدها، وهو آخر المخرج الثالث من الحلق مما يلي الفم (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 169).

ذكر مكي أنه لاحظ لدى طلبة علم القراءة ميلا إلى جملة من الأخطاء الأدائية التركيبية في نطق حرف الخاء؛ في مثل عدم تفخيمهم لها إذا وقعت بعدها ألف – أي إذا كانت مفتوحة أو بعدها ألف– أو عدم التحفظ في نطقها إذا وقع بعدها عين أو قاف لقرب المخارج وغير ذلك.. والذي يبدو لي أن مكيا ينبه هنا على ضرورة المحافظة على تفخيم الغين، وكذا المحافظة على جهرها حتى لا تخرج بصوتها إلى صوت حرف آخر.

ب. مخرج اللسان:

وحروفه: القاف، والكاف، والشين، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والذال، والزاي، والسين، والصاد والظاء، والثاء.

- **حرف القاف:** ويتحقق نطقه في المخرج الأول من مخارج الفم مما يلي الحلق من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 171)

أكد مكي تأكيدا شديداً على وجوب المحافظة على تفخيم القاف إذا أتت بعدها ألف، وكذا وجوب بيانها إذا جاورتها الكاف قبلها أو بعدها حتى لا يختلط لفظها بلفظ الكاف، ويفهم من كلامه أنه على القارئ المحافظة في إخراج هذا الحرف في سياقات صوتية معينة.. منها المحافظة على تفخيمه خاصة إذا وليته الفتحة أو الألف، وكذا المحافظة على جهره حتى لا تخالطه صفة الهمس الموجودة في الكاف المجاور له.

- **حرف الكاف:** يتحقق نطق الكاف في المخرج الثاني من مخارج الفم بعد القاف مما يلي الفم. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 173)

نبه مكي على وجوب بيان "الكاف" إذا وقعت بعدها "قاف" لقرب مخرجيهما، وهذا يكون إذا وقعتا في سياق لغوي واحد أي إذا وقعتا في كلمة واحدة، كما يجب بيان الكاف أيضاً إذا كانت مبدلة من قاف كما في بعض اللغات، وضرب مكي مثالاً عن ذلك بما ورد في قراءة عبد الله بن مسعود بقوله تعالى: « وإذا السماء كُشطت» (التكوير: 11)، فقد قرأ ابن مسعود (كُشطت) بالقاف وهي لغة قيس وتميم وأسد، وأما قريش فتنطقها بالكاف والمعنى واحد. (ابن الجوزي، ط4، 1407هـ–1987م، صفحة 40/9)

- **حروف وسط الحنك:** الشين، الجيم، والياء. وهذه الحروف من المخرج الثالث من مخارج الفم (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 175 وما بعدها).

نص مكي على وجوب البيان في نطق كل حرف من حرف من هذه الحروف حتى لا يخالط في نطقه نطق أخيه في المخرج نفسه، وأكد على ضرورة تحقيق الجيم تحقيقاً صحيحاً، خاصة إذا كانت ساكنة وبعدها زاي في مثل قوله تعالى: «رجزاً من السماء» (البقرة: 59)، لأن الزاي حرف مجهور كالجيم وفيها صفير، ولكن المفارقة بينهما هي أن الزاي رخوة والجيم شديدة، فإذا لم يتحفظ القارئ في نطقها ببيان الشدة

مال اللفظ واللسان إلى بدل الجيم بزاي ليعمل اللسان عملاً واحداً في حرفين رخوين، «فلا بد من التحفظ بلفظ الجيم الساكنة التي بعدها زاي، لأجل الشدة التي تخالف الرخاوة والصفير اللذين في الزاي ». (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 176)

وهذا أمر يؤكد لنا أن الجيم التي كان ينطق بها القدماء هي جيم شديدة، ربما كانت تشبه الجيم الفصيحة التي نسمعها اليوم من مجيدي القراءات القرآنية ونسمعها أيضا في بعض اللهجات، وهي صوت مركب يبدأ بدال من الغار وينتهي بشين مجهورة. ولعل المراوحة بين الجيم في كلمة (البروج)، والدال في ثماني فواصل بعدها، في سورة "البروج"، ترجح أن النطق بالجيم في القديم، كان أقرب ما يكون شبهاً بنطق الدال. (إبراهيم أنيس، 1971م: 83)

- **حرف الضاد:** يتحقق هذا الحرف في المخرج الرابع من مخارج الفم من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 184)

يرى مكي أن الضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ، وذكر أن القراء والأئمة على زمانه كان أكثرهم يقصّر في نطقه، وتجويد اللفظ بالضاد في نظره لا بد فيه من المحافظة على خصائص وصفات أساسية فيه وهي: التفخيم والاستعلاء والإطباق والاستطالة، مع إظهار صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس، وإذا لم يتحقق ذلك فإن الضاد سيحول إلى لفظ الظاء أو الذال.

ومن العلماء من عد نطق الضاد ظاء أو ذالاً – في قراءة القرآن – لحناً في كتاب الله، (المرعشي، ط1، 2008م، صفحة 118) وإن كانت الضاد والظاء تشتركان في كثير من الصفات تجعل الخلط بين صوتيهما أمراً وارداً جدا، وهي مسألة أُلفت فيها رسائل وتصانيف كثيرة في مجال الدراسات اللغوية، وفي مجال الدراسات القرآنية. (المرعشي، 2008م: 124)

- **حرف اللام:** تتحقق اللام في المخرج الخامس من مخارج الفم، بعد مخرج الضاد من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 188)

ينبّه مكي على أنه على القارئ أن يحافظ على اللام مرققا في أكثر سياقاته الصوتية القرآنية، وتفخم تشبيها لها بالراء، وهذا يعني أن الأصل في اللام الترقيق على عكس الراء التي يعد التفخيم أصلا فيها.

- **حرف النون:** يتحقق هذا الحرف في المخرج السادس من مخارج الفم فوق اللام قليلاً أو تحتها قليلاً.. من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 193)

والنون عند مكي مؤاخية اللام لقرب المخرجين ولانحراف اللام إلى مخرج النون، وإذا تكررت وجبت المحافظة على إظهارها. والحق أن للنون أحكاما كثيرة؛ من إظهار وإخفاء وإدغام وقلب.. وفق أحكام معروفة ذكرتها كتب القراءات والتجويد.

هذا، وتعد النون أكثر الحروف العربية ميلا إلى التطور والتغير وذلك إذا كانت ساكنة مجاورة لغير حروف الحلق. (إبراهيم أنيس، 1971م: 67 وما بعدها)

- **حرف الراء:** يتحقق نطقها في المخرج السابع من مخارج الفم من مخرج النون، غير أنها أدخل إلى ظهر اللسان قليلا. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م:195)

نبّه مكي القارئ على وجوب إخفاء تكرير "الراء" والمقصود بذلك عدم المبالغة في طرق طرف اللسان على أصول الثنايا، وأما من حيث تفخيمها وترقيقها فقد وردت بذلك أحكام سجلتها كتب القراءات والتجويد، والذي يبدو أن الأصل في الراء التفخيم إلا ما كان من أمر الراءات المكسورة فقد كان العرب يستقبحونها وينسبون الكسر فيها إلى العوام وغير العرب (إبراهيم أنيس، 1971م: 66 وما بعدها).

- **حروف طرف اللسان وأصول الثنايا:** الطاء والدال والتاء: وهذه الحروف من المخرج الثامن من مخارج الفم تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 198 وما بعدها).

إن هنالك اختلافاً في بعض الصفات بين هذه الحروف لاسيما بين "الطاء" و "الدال" والفرق بينهما في السمع، ولولا الإطباق والاستعلاء في "الطاء" لكانت "دالاً"، ولا بد للقارئ – بحسب مكي– أن يحفظ لهذه الحروف صفاتها المعروفة بينها.

- **حروف طرف اللسان وفويق الثنايا العليا:** الزاي، السين، الصاد. وتتحقق في المخرج التاسع من مخارج الفم، من ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 209 وما بعدها)

ينص مكي على أن التكرير في الزاي يوجب بيانها لثقل التكرير، كما يجب تمكين الصفير في السين لأن الصفير في السين أبين منه في الصاد، وطريق تمكين النطق المجوّد بكل من "السين" و "الصاد" والتفريق بينهما، هو أنه على القارئ الحرص على أداء صفة الصفير في السين فهي أبرز خصائصها، وعليه أن يحافظ على إطباق الصاد، فصفة الإطباق فيها هي أبرز وأظهر خصائصها .

- **حروف طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا:** الظاء، الثاء، والذال. وهذه الحروف تتحقق في المخرج العاشر من مخارج الفم، وذلك ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 220 وما بعدها).

وأبرز ما نبّه عليه مكي في نطق هذه الحروف هو إعطاء كل حرف حقه من اللفظ، والإتيان بصفاته الأساسية حتى لا ينقلب إلى لفظ أخيه في المخرج، ولاسيما حرف الظاء؛ فإذا لم يبين القارئ حرف الظاء خرج به إلى لفظ الضاد، وكذلك الظاء إذا لم تتحقق بها صفة الإطباق تحولت إلى ذال... وهكذا.

- **حرف الفاء:** من المخرج الحادي عشر من مخارج الفم من باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العليا (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 227).

يشير مكي إلى أن حرف الفاء ضعيف لكن فيه صفة التفشي التي تكسبه بعض القوة، وهي صفة يطلق عليها بعض العلماء مصطلحات أخرى كـ "النفث" أو "التأفيف" (عبد العزيز الصيغ، 2000م: 171). وربما وصفت الفاء والثاء معاً بصفة النفث.

غير أن اللافت في كلام مكي أنه وصف الثاء بالشدة في مقابل الفاء الرخوة، ولست أدري عن أي شدة يتحدث هنا؛ فالثاء حرف رخو بإجماع علماء اللغة والقراءات، إلا أن يكون قد قصد بذلك وصف "ثاء

لهجية " كان يسمعها في نطق بعض معاصريه، فربما تكون شديدة مثل ما نسمعه في نطق العامة اليوم لحرف الثاء.

- **حروف ما بين الشفتين مع تلاصقهما:** الباء، الميم والواو. وهذه الحروف تتحقق في المخرج الثاني عشر من مخارج الفم مما بين الشفتين مع تلاصقهما. (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 229)

وهذه الحروف تتدخل الشفتان في تحقيقها ولا يجد القارئ في نطقها كبير عناء – لاسيما الباء والميم – لأنها أول الحروف التي يبدأ الإنسان بنطقها، كما قد تكون أسهل الحروف تعلماً لدى المتدربين على القراءة لسهولة ملاحظة وضع الشفتين أثناء النطق.

ت. مخرج الخياشيم:

وهو المخرج الثالث عشر من مخارج الفم والخيشوم، هو المركب فوق غار الحلق الأعلى، (مكي بن أبي طالب القيسي، 2008م: 240 وما بعدها) وهو مخرج النون الساكنة الخالصة السكون، والمقصود بذلك الغنة ومكان حدوثها وتشكلها هو الخيشوم.

ثامناً: خاتمة.

لقد كان البحث في موضوع أصوات اللغة في كتاب "الرعاية" كثير الفوائد والفرائد، إنه موضوع كشف عن جوانب «تجويد الألفاظ والوقوف على حقائق الكلام.. ومعرفة أحكام الحروف التي ينشأ الكلام منها»، كما أن الدراسة قد أبانت عن معالم القدرة المنهجية التي ميزت مكياً؛ في جمعه واستخلاصه وتلخيصه لآراء المتقدمين من علماء النحو واللغة والقراءات، في موضوع الأصوات العربية.

وبعد أن تدارسنا قضايا الصوت القرآني ومنهج دراسته وتعليمه عند مكي في "الرعاية"، يمكننا أن نخلص إلى جملة نتائج محدّدة:

1- يعدّ كتاب "الرعاية" نموذجاً فريداً – بين مؤلفات علم التجويد – في تحليله للنظام الصوتي للغة العربية من حيث دراسة الحروف في حالتي الإفراد والتركيب، وكذا استخلاص الظواهر الصوتية، ووضعها في قواعد تساعد الدارس والمتعلم على معرفتها وإتقانها أثناء التصدي لتجويد ألفاظ القرآن الكريم.

2- تناول مكي – في الرعاية – جميع حروف العربية، كل حرف في بابه وذكر صفاته المميّزة له عن الحروف الأخرى، سواء تلك التي من مخرجه أو تلك الحروف المغايرة له في المخرج، وأكدّ على ضرورة أن يمنح القارئ والمتعلم لكل حرف حقّه من مخرج وصفات، في إشارة من مكي إلى ما يعنيه المعاصرون اليوم في مجال التعليم بتكوين الجانب المعرفي للمتعلم وبناء مهارات الفهم لديه.

3- لم تكن تلك المباحث الصوتية في كتاب "الرعاية" خالية من الآراء والتصورات الخاصة بمكي بن أبي طالب في قضايا عديدة، ومنها تلك التي أيدته فيها الدراسات الصوتية المعاصرة، فبالرغم من أن منهج تأليف الكتاب قام على جمع وتلخيص تصورات علماء اللغة والنحو والقراءة قبل مكي، إلا أن مكياً سجل في كتابه آراءه وتصوراته في بعض القضايا الصوتية، وإن كان يحيل في أكثرها على كتبه الأخرى تجنباً للتطويل.

4- اشتمل كتاب "الرعاية" على ملحوظات وتوجيهات وتنبيهات تعليمية كثيرة تدل على تجربة عملية طويلة مارس فيها مكي فنّ الإقراء والتجويد، وتعامل فيها مع طلبة العلم والمريدين. وبذلك جمع كتاب "الرعاية" بين الخبرة العلمية والتجربة العملية.

5- نجح الإمام مكي في كتاب "الرعاية" في ابتكار منهج علمي جديد يوفق بين مجالي التأليف والتعليم، وهو واحد من الابتكارات العلمية المنهجية لمكي في موازنته الفريدة، بين أغراض التأليف العلمي وبين متطلبات التعليم والتلقين.

قائمة المصادر والمراجع

*القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- أبركرومي: ديفيد (ت 1888م)، مبادئ علم الأصوات العامّ، ترجمة وتعليق: الدكتور محمد فتيح، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة/ مطبعة المدينة، ط1، 1409هـ - 1988م.

2- أنيس: الدكتور إبراهيم (ت 1977م)، الأصوات اللغوية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط4، 1971م.

- في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1965م.

3- برجشتراسر: الدكتور جوتهلف (ت 1932م)، التطور النحوي اللغة العربية، إخراج وتعليق: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة/ دار الرفاعي، الرياض، د ط، 1402هـ - 1982م.

4- بشر: الدكتور كمال محمد (ت 2010م)، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، د ط، 2000م.

- علم اللغة العام (الأصوات العربية)، مكتبة الشباب، مصر، د ط، د ت.

5- جبل: الدكتور محمد حسن حسن، المختصر في أصوات اللغة العربية - دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط4، 1427هـ - 2006م.

6- ابن الجزري: أبو الخير محمد بن محمد (ت 833هـ)، النشر في القراءات العشر، تخريج الآيات: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ - 1998م.

7- ابن جنّي: أبو الفتح عثمان (ت 392هـ)، الخصائص، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ - 2003م.

- سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشدي شحاته عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1421هـ - 2000م.

8- ابن الجوزي: أبو الفَرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط4، 1407هـ - 1987م.

9- حسان: الدكتور تمام (ت 2011م)، مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م.

10- الحمد: الدكتور غانم قدوري، أبحاث جديدة في علم الأصوات والتجويد، دار عمار، الأردن، ط1، 1432هـ - 2011م.

- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار، الأردن، ط2، 1428هـ - 2007م.
- المدخل إلى علم أصوات العربية، منشورات المجمع العلمي، بغداد، 1423هـ - 2002م.

11- الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر (ت 538هـ)، المفصل في علم العربية، تحقيق: الدكتور فخر صالح قدارة، دار عمار، الأردن، ط1، 1425هـ – 2004م.
12- السعران: الدكتور محمود، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، د ط، د ت.
13- سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان (ت 180هـ)، الكتاب، دار الجبل، بيروت، ط1، دت.
14- السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله (ت 368هـ)، ما ذكرهُ الكوفيون من الإدغام، تحقيق وتقديم وتعليق: الدكتور صبيح التميمي، دار الشهاب، باتنة (الجزائر)، د ط، دت.
15- السيوطي: أبو بكر عبد الرحمن بن الكمال (ت 911هـ)، الأشباه والنظائر في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت.
16- شلبي: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل، في الدراسات القرآنية واللغوية – الإمالة في القراءات واللهجات العربية، دار نهضة مصر، القاهرة، د ط، د ت.
17- الصبّان: أبو العرفان محمد بن علي (ت 1206هـ)، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ – 1997م.
18- الصيغ: الدكتور عبد العزيز، المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، بيروت/دار الفكر، دمشق، ط1، 1421هـ – 2000م.
19- عبد التواب: الدكتور رمضان (ت 2001م)، مشكلة الهمزة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1417هـ – 1996م.
20- عبد الجليل: الدكتور عبد القادر، الأصوات اللغوية، دار صفاء، الأردن، ط1، 1418هـ – 1998م.
21- الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت 175هـ)، معجم العين، تحقيق: الدكتور عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، 1967م.
22- المبّرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت 285هـ)، المقتضب، تحقيق: حسن حمد، ومراجعة: الدكتور إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ – 1999م.
23- المرعشي: محمد بن أبي بكر الملقب بساجقلي زاده (ت 1150هـ)، تنبيهات على كتاب كيفية أداء الضّاد، تحقيق: فرغلي سيدي عرباوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة (مصر)، ط1، 2008م.
- جُهد المقل، دراسة وتحقيق: الدكتور سالم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط2، 1429هـ – 2008م.
24- ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة: الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1419هـ 1998م.
25- مكّريني: الدكتور بلقاسم، معجم المصطلح الصوتي عند علماء التجويد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1434هـ – 2013م.

26- مكي بن أبي طالب: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ)، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار، ط5، 1428هـ – 2008م.
27- ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ومراجعة: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1426هـ – 2005م.
28- هلال: الدكتور عبد الغفار حامد، أصوات اللغة العربية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط3، 1416هـ – 1996م.
29- ابن الوجيه الواسطي: عبد الله بن عبد المؤمن (ت 740هـ)، الكنز في القراءات العشر، تحقيق: هناء الحمصي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ – 1998م.